عقبى الدار » ويلاحظ أننا لا زلنا بصدد لفظة « عقبى » وبصدد لفظة « الدار ». وما قيل من قبل عن الدار بأنها دار الدنيا يقال هنا . والمعنى : وسيعلم الكفار يوم القيامة لمن كان له العقبى الحسنة للحياة الدنيا وهى الجنة . ويفهم الكفار فى المقابل كلاماً آخر محذوفاً مفاده وسيعلم الكفار يوم القيامة لمن العقبى السيئة للحياة الدنيا وهى النار .

وحينما يعلم كفار مكة أن العقبى الحسنة ، وهى الجنة ، من نصيب المؤمنين يوم القيامة ، بينما كانوا يعتقدون أن المؤمنين لا يحسنون صنعا ، فإن خيبة ظنهم يوم القيامة ، امتداد لخيبة ظنهم فى الحياة الدنيا . وإذا كانت خيبة ظنهم فى الدنيا قد عبر عنها بأنها مكر بهم ، فإن خيبة ظنهم يوم القيامة ، امتداد لخيبة ظنهم فى الدنيا . وهذا يتمشى مع جو المكر الذى صرح به صدر الآية . إن عجز الآية الكريمة يتمشى فى جوهره مع ما صرح به صدرها .

وبقى شىء واحد نريد التنبيه إليه هو أن العقبى الحسنة لهذه الدار ، وهى جنة المؤمنين ، التى قلنا إنها فى نظر الكافرين مكر بهم وامتداد للمكر بهم فى الحياة الدنيا ، من الجائز أن تحملنا على تقدير لفظ العقبى أو العاقبة ، بشأن قوله تعالى : « فلله المكر جميعاً » وتقدير الكلام . فلله عاقبة المكر جميعاً ، لأن الذين يمكر بهم ، وهم الكافرون الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا يفطنون لذلك أول الأمر إنما فى آخره وعقباه .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة الأخيرة فى السورة « **ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** » تبينا أنها تعين السبب فى ضلال سعى الكافرين . إنهم ينكرون أن يكون الرسول الكريم رسول رب العالمين ، وبالتالى هم ينكرون القرآن الكريم وتعاليم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإفراد الله تعالى بالعبادة واليوم الآخر . إن هؤلاء الكافرين ، بلغت بهم الوقاحة وكذلك الجهل ، للدرجة التى يخاطبون معها المصطفى صلى الله عليه وسلم قائلين : إنك لست مرسلا . وإنه عز وجل

ليلقن رسوله الكريم الجواب الذى يفحمهم « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » . إنه ليكفيه صلى الله عليه وسلم أن يكون الشهيد، هكذا فى صيغة المبالغة ، فى هذه القضية الخطيرة بين المصطفى صلى الله عليه وسلم وبين كفار مكة ، هو الله تعالى الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، والذى عنده علم الكتاب .

فما المراد بالكتاب ؟ بما أن لفظة الكتاب فى هذه السورة شاملة ، فهى أحياناً تعنى القرآن الكريم ، قال تعالى : « المر ، تلك آيات الكتاب » وأحياناً تعنى التوراة والإنجيل . قال تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك » وأحياناً تعنى اللوح المحفوظ . قال تعالى : « لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وبما أن علم البشر مقصور على الكتب السماوية التى أنزلها الله تعالى على رسله ، ونعنى هنا فى المقام الأول التوراة والانجيل والفرقان . فلا مانع من أن يكون معنى « ومن عنده علم الكتاب » ومن عنده علم الكتب السماوية ، التوراة والإنجيل والفرقان . ولكن بما أن طبيعة المرحلة التى تمر بها الدعوة آنذاك ، هى المرحلة التى كان فيها بعض أهل الكتابين السماويين اللذين لم يحرفا آنذاك تحريفاً كبيراً ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، بحيث إنه صح أن يخاطب المصطفى صلى الله عليه وسلم فى آية مدنية من سورة يونس المكية فى مجموعها بقوله تعالى : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »(١) . وجاء عن هؤلاء فى سورة آل عمران المدنية قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب »(٢). وجاء عن هؤلاء فى سورة الإسراء المكية . قوله تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون

---

(١) يونس : ٩٤ .

(٢) آية : ١٩٩ .

سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً »(١) . وجاء عن هؤلاء فى آيات مدنية من سورة القصص المكية قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(٢) .

لكل ذلك ، من الجائز أن يفهم من قوله تعالى : «ومن عنده علم الكتاب» أن المراد أولئك المنصفون من أهل الكتاب الذين لم يشتروا بآيات الله ثمناً قليلا والذين لم يترددوا فى الإيمان بما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم من عند ربه ، وقد تبين لهم أنه الحق ، كعبد الله بن سلام .

وإذا كان سعيد بن جبير يذهب إلى أن السورة مكية ، فإنا نرى رأية فى كون السورة الكريمة مكية فى مجموعها ، ولكن لا مانع من اشتمال السورة المكية على آيات مدنية . وبالتالى لا مانع من أن يكون عبد الله ابن سلام رضى الله عنه ، أحد المقصودين بقوله تعالى : «ومن عنده علم الكتاب»(٣) كما قال مجاهد(٤). ويقول ابن كثير(٥) : « والصحيح فى هذا أن ومن عنده اسم جنس ، يشمل علماء أهل الكتاب ، الذين يجدون صفة محمد صلى الله الله عليه وسلم ونعته فى كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه

---

(١) الآيات : ١٠٧ – ١٠٩ .
(٢) الآيات : ٥٢ – ٥٥ .
(٣) انظر تفسير الطبرى : ١٣ - ١١٩ .
(٤) تفسير ابن كثير : ٢-٥٢١ . وانظر الصفحة ذاتها فابن كثير يرى أن الآية مكية .
(٥) تفسير ابن كثير : ٢-٥٢١ .

مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل »(١)الآية . . وقال تعالى : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل »(٢)الآية وأمثال ذلك مما فيه من الأخبار عن علماء بنى إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

(١) الأعراف آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) الشعراء : ١٩٧ .

الخاتمة

بعون من الله تعالى وتوفيقه ، درسنا فى الصفحات السابقة سورة الرعد ، المكية فى مجموعها ، دراسة متأملة . وقد أمكن تقسيم السورة الكريمة ، بحسب الموضوعات المتجانسة التى تعالجها ، إلى عشرة أقسام .

أما القسم الأول فيتكون من الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : **« المر ، تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون »** والآية الكريمة تشير إلى الموضوعات التى ستعنى بها السورة الكريمة . إنها القرآن الكريم ، والرسول العظيم . والمؤمنون المتقون . والكافرون الظالمون . كما أن الآية الكريمة ، فى نصها على نزول القرآن الكريم ، من الله تعالى ، على الرسول الكريم ، بواسطة جبريل عليه السلام ، تشير ضمناً إلى السماء ، مصدر القرآن الكريم ، وإلى الأرض موطن الناس ، الذين من أجلهم أنزل الله تعالى القرآن المجيد . والمعروف أن القرآن ، وصل الأرض بالسماء .وفى نص الآية الكريمة على عدم إيمان أكثر الناس ، إشارة ضمنية إلى المؤمنين القليلين . فنحن إذن بصدد مؤمنين وكافرين ، بصدد قلة وكثرة . وإن جمع الآية الكريمة ، بين هذه الصفات المتقابلة ، يشير إلى أهم صفة تميز هذه السورة الكريمة ، من أولها إلى آخرها ، وهى صفة الجمع فى نسق بين الصفات المتقابلة .

أما القسم الثانى ، الذى يتكون من ثلاث آيات ، فإنه يتحدث عن السماء ، وعن الأرض ، اللتين جاءت الإشارة إليهما من قبل ضمناً . واللتين يجمع بينهما فى الحس التضاد . ويتحدث عن بعض العناصر السماوية والأرضية ، التى يجمع بينها فى الحس التضاد أيضاً ، كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، الأرض الممدودة والجبال الرواسى ، الثمرات التى لكل زوجان اثنان ، قطع الأرض المتجاورة والمتباعدة ، المختلفة فى الطبيعة

من خصبة وسبخة ، الأعناب المعروشة والزروع غير المعروشة ، النخيل الصنوان ، وهو الذى له أصل واحد ، وجذوع متعددة ، وغير الصنوان ، وهو الذى تستقل كل نخلة فيه بأصلها وجذعها ، التفاوت فى الطعوم بين الثمرة والأخرى . إن التضاد ، أو الاختلاف فى الصفات ، ليس مقصوراً على البشر ، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر ، على نحو ما يفهم من القسم الأول من السورة الكريمة ، حيث تمت الإشارة إلى المؤمنين وغير المؤمنين ، إنما هو شامل للكثير من المخلوقات الأخرى .

وإن الإيمان باليوم الآخر ، من أهم أهداف السورة الكريمة ، فقد جاءت الإشارة إلى ذلك فى هذا القسم من السورة ، **« لعلكم بلقاء ربكم توقنون »** ولعل هذا من الأدلة على أن السورة الكريمة مكية فى مجموعها ، وليست مدنية ، كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء .

ومع أن الحديث هنا قد شمل السماء والأرض ، فالملاحظ أن حظ الأرض هو الأكبر . وذلك من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده ، لأن علاقة الإنسان بالأرض هى الأكبر ، ولأن علمه بها هو الأكثر . ومعنى هذا أن المنتظر من الإنسان أن يكون أكثر قدرة على أخذ العبرة من الآيات المتعلقة بالأرض التى ينبه إليها .

ويبدو من هذا القسم إشادة القرآن الكريم بالفكر وبالعقل . جاء فى الآية الثالثة من السورة قوله تعالى : **« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »** . وجاء فى الآية الرابعة . قوله تعالى : **« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »** .

ومن أهم ما أمكن الاهتداء إليه بشأن هذا القسم الثانى هو محاولة تبيين الترابط بين صدر كل آية وعجزها . وقد تبين التلاحم بين الصدر والعجز ، وأن تنوع العجز ، تبع لتنوع الصدر ، الذى يأخذ فى التنوع المعبر عن نظام رائع من التدرج المنطقى . فبما أن الآية الأولى فى القسم تتحدث عن السماوات وما يتعلق بها ، مما يعتبر أقرب إلى الغيبيات ، فقد كان العجز متعلقاً بيوم القيامة ، وهو من الغيبيات ، **« لعلكم بلقاء ربكم توقنون »** .

ولما كان حديث الآية التالية ، عن مجموعة من الكليات المتعلقة بالأرض ، وهى تحتاج إلى إعمال الفكر وإدامة النظر والتدبر ، لذا كان العجز متعلقاً بالحث على التفكر « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ولما كانت الآية بعد ذلك تتحدث عن بعض المعالم الأرضية ، التى لا تكاد تخطئها عينان ، فهى قريبة التناول ، ولكن الأمر بحاجة إلى عقد الرابطة بين السبب والمسبب ، كى يتحقق الإيمان باليوم الآخر فالعمل من أجله ، لذا كان عجز الآية الكريمة ، متعلقاً بالحث على استعمال العقل « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » وهذا النوع من محاولة تبيين الترابط بين صدر الآية وعجزها ، رمز لما تم عمله بشأن آيات أخر ، فى أقسام أخرى . وهذه هى آيات القسم . قال تعالى : « الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وفيما يتصل بالقسم الثالث ، الذى يتكون من ثلاث آيات هى الخامسة والسادسة والسابعة ، تبين أنه طلب فيه من الإنسان ثلاثة أمور أن يؤمن باليوم الآخر ، وأن يتفكر فى خلق السماوات والأرض ، وأن ينتفع بنعمة العقل . قال تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

إن الآية الكريمة الأولى هنا ، تشير إلى أن الكافر المنكر للبعث ، والذى لم يمتثل لأوامر الله تعالى ، والذى عطل نعمة العقل ، له فى المقابل ثلاثة أمور .

لقد استحق أن يوسم بالكفر بربه . فله الإغلال فى عنقه يوم القيامة ، ومن نصيبه الخلود فى النار وبئس القرار . وحينما يعطل العقل يحكم الهوى ، ومن أهم مظاهره بشأن كفار مكة ، استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، وبالعذاب بدل المغفرة .

ومن أهم ما لفت الانتباه بشأن هذا القسم ، وكل قسم ، الصفات المتقابلة . ففى هذا القسم السيئة والحسنة . المغفرة وشدة العقاب . الإنذار والتبشير . وبما أن كفار مكة هم الهدف الأول للسورة الكريمة ، لذلك كان للتعبير قسط كبير من الشدة والعنف ومن مظاهر ذلك أن الإنذار كان أبرز من التبشير المفهوم ضمنا من الهداية التى جاءت الإشارة إليها فى قوله تعالى خطاباً له صلى الله عليه وسلم : « **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** » إن هذه الظاهرة تلاحظ فى العديد من المواضع فى السورة الكريمة . كأن يتقدم فى الآية الثانية عشرة من السورة الخوف على الطمع ، ويتقدم الأعمى على البصير والظلمات على النور فى الآية السادسة عشرة .

وإذا كان كفار مكة قد طلبوا مجموعة من الخوارق المادية ، فلأنهم عطلوا نعمة العقل . وإذا كانوا قد أساءوا فهم عدم التحقيق لرغباتهم ، فذلك امتداد لتعطيلهم هذه النعمة واتباعهم الهوى . انه عز وجل قادر على أن يحقق ما طلب كفار مكة ، ولكنه سبق فى علمه جل وعلا أنهم لن يؤمنوا . وبما أن رحمة الله تعالى لم تشأ استئصالهم ، لذلك لم يتحقق من طلبات كفار مكة ما يصح عقلا تحقيقه ، وكان الاكتفاء بالقرآن الكريم ، معجزة المعجزات ، لأن هذه المعجزة ، هى التى تناسب كفار مكة ، المتفوقين فى مجال البيان . وإن من أهم ما يتجلى فى هذا القسم ، الإشارة إلى علم الله تعالى المطلق وقدرته .

أما القسم الرابع ، الذى يتكون من تسع آيات ، تبدأ بالآية الثامنة من السورة وتنتهى بنهاية الآية السادسة عشرة ، فقد كان ذا عناية بالغة بعلم الله تعالى ، الذى ليس للزمن علاقة به البتة ، وبقدرته عز وجل المطلقة ،

لقد ارتبطت الآيات المتقدمة فى هذا القسم ببعض مظاهر علم الله تعالى : كعلمه عز وجل ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وعلم الغيب والشهادة ، وعلم سر القول وجهره ، وعلم من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . مع تقرير الحقيقة القائمة من كونه عز وجل ، لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد عز وجل بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . قال تعالى : « **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال** » .

ولما كان كفار مكة ، كما أشار القسم السابق ، يطلبون أن تنزل على الرسول الكريم آيات من السماء ، وكانوا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، عرض هذا القسم الرابع لبعض مظاهر قدرة الله تعالى المطلقة المتعلقة بالسماء ، من زاويتى الخوف والرجاء ، الهلع والطمع ، والمعروف أن الجمع بين الصفات المتقابلة ، من أهم سمات هذه السورة الكريمة . قال تعالى : « **هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال** » .

ولما كانت النتيجة الطبيعية لانصراف كفار مكة عن الرسول الكريم ، والقرآن الحكيم ، أن يشركوا مع الله تعالى سواه ، عرض هذا القسم لذلك الخطأ ، وأوضح البديل الصحيح . والمعروف أن المكى من القرآن يعنى بأسس العقيدة ، ويرجح لدينا أن هذه السورة الكريمة ، مكية فى مجموعها . قال تعالى : « **له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم**

بالغدو والآصال . قل من رب السماوات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

وفيما يتصل بهذا القسم الرابع ، نحن وقفنا ملياً عند قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وأشرنا إلى أن قدامى المفسرين ، يميلون إلى تفسير الجزئية الكريمة ، بما يتمشى مع الآية الثالثة والخمسين من سورة الأنفال ، قال تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » . التى تتفق فى صياغتها كثيراً ، مع جزئية آية سورة الرعد . هذا بالإضافة إلى أن آية سورة الأنفال ، جاء فيها النص الصريح على النعمة ، بينما هى مضمرة أومفهومة ضمناً فى جزئية آية الرعد . إن تفسير قدامى المفسرين فى رأينا هو التفسير الأولى لجزئية الكريمة . وثمةمعنى آخر ، أوتفسير آخر ، تفيده الجزئية الكريمة ، ولكن بدلالة الالتزام . ومفاده أن على المسلمين ، إن أرادوا أن يبدل الله تعالى حالهم السيء هذه الأيام ، إلى حال حسن فينبغى أن تكون المبادرة منهم ، عن طريق العودة الصادقة للإيمان والعمل الصالح ، وفق تعاليم القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وإلى هذا المعنى ذهب متأخرو المفسرين فى مجموعهم . ويلوح لى أن الذى حدا بجل المفسرين إلى هذا المعنى ، هو الواقع الأليم للمسلمين ، ورغبتهم الصادقة ، فى أن يعود إلى المسلمين مجدهم السابق . ونحن نبارك هذه النية الحسنة ، ونكتفى بالقول تجاه هذا الرأى : إنه رأى تفيده الجزئية الكريمة ولا شك ، ولكن بدلالة الالتزام .

وإذا كان الأسلوب العنيف الذى يوجه إلى كفار مكة قبل سواهم قد قدم — كما سبق أن قلنا — الخوف على الرجاء ، والأعمى ، أعمى البصيرة والعينين ، على البصير ، والظلمات على النور ، فالملاحظ أن الظلمات جاءت فى صيغة الجمع ، لأن طرق الضلال أكثر من أن يأتى عليها الحصر ، وأن النور جاء فى صيغة المفرد ، لأن طريق الحق واحد .

وفيما يتصل بالقسم الخامس ، فإنه يتكون من آية واحدة ، تتحدث عن الأودية التي تحمل المـاء ، وتحمل الزبد فوق المـاء . كما تتحدث عن المعادن التي يوقد عليها في النار ، والتي يطفو فوقها زبد المعادن أو خبثها . إن الزبد الذي محله متأخر يعلو . هكذا شاءت إرادة الله تعالى . وإن وجود الزبد ونماءه ، رد فعل لوجود المـاء والمعدن المتحركين المجتهدين . هـذه هي الطامة الكبرى والداهية العظمى . وإن الواجب يحتم أن يتخلص من الخبث وإن طال طفوه على جوهر المـاء والمعدن ، لأن الخبث بمنزلة الباطل ، الذي سيدحضه الحق حتماً ويزهقه ، طال الأمد أو قصر . ومن أهم ما يلاحظ بشأن هذه الآية الكريمة الصفات المتقابلة . فيكفي أن يقال إننا بصدد مثلين لا مثل واحد ، مائي وناري . ومعروف أن طبيعة المـاء مغايرة للنار . كما يلاحظ عمومية أحد المثلين وهو المائي . فكل الناس يرون السيل وهو يحمل الزبد فوقه . وخصوصية ثاني المثلين ، وهو الناري ، لأن الصاغة ومن في حكمهم ، هم الذين يرون ذلك . هذا إلى ارتباط هذا المثل الثاني أكثر ، بالجماعة المستقرة الصناعية ، بينما يرتبط المثل الأول أكثر ، بالجماعة المتنقلة الرعوية البدوية . ويلاحظ كذلك أن نزول المطر من السماء إلى الأرض ، هذا إلى أن الحلية تختلف عن المتاع ، من حيث المعدن وطبيعة العمل والشخص الذي صنعت له الحلية ، والشخص الذي صنع له المتاع . إن الحلية أكثر ارتباطاً بالنساء . وإن المتاع أكثر ارتباطاً بالرجال هذا إلى ذهاب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض . وإن المـاء يراد به الحق وإن الزبد يراد به الباطل . ويمكن أن ينزل اختلاف الأودية اتساعاً وضيقاً ، باختلاف بني آدم بشأن موقفهم من الحق ، قبولا أو رفضاً .

إن كون الزبد طافياً فوق المـاء والمعدن . وكون هذا الطفو مرتبطاً بحركة كل من المـاء الصالح والمعدن النافع ، معناه أن هذه هي طبيعة العلاقة بين الحق والباطل ، الخير والشر . حركة صراع دائم . وربما يطول هذا الصراع . وربما يكون للباطل جولة أو جولات . ولكن النهاية دائماً في صالح الحق والخير ، تماماً كما كانت في صالح المـاء والمعدن .

قال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً . ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » .

وفى نظرتنا الثانية إلى الآية الكريمة ، من زاوية الهدف الذى ترمى إليه ، بعد النظرة الأولى ، من زاوية الآلة والوسيلة ، وقفنا عند الحق ، الذى رمز إليه بالماء والمعدن ، وعند الباطل ، الذى رمز إليه بالزبد ، وذلك استفادة من القول فى الآية الكريمة « كذلك يضرب الله الحق والباطل » والقول : « كذلك يضرب الله الأمثال » . إن الملابسات التى أحاطت بنزول القرآن الكريم ، والمعانى التى تعرض لها السورة الكريمة ، ومظاهر الصراع ، بين المؤمنين والكافرين ، كل ذلك يجعلنا قادرين على أن نفهم أن المراد بالحق ، هو هذا الدين الذى رضى الله تعالى لعباده ، والذى يعتبر القرآن الكريم معجزته الكبرى والخالده ، وأن المراد بالباطل ، هو الشرك وتلك الشكوك والأباطيل والترهات ، التى يثيرها خصوم هذا الدين .

إن معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، هى القرآن الكريم . وإن بين هذا القرآن الكريم وبين المـــاء ، الذى يشكل عصب المثل الأول فى الآية الكريمة ، أكثر من علاقة . إن المـــاء إذا كان غذاء الأبدان ، فإن القرآن الكريم ، غذاء الأرواح . ومعروف أن الإنسان جسد وروح . هذا إلى أن الجامع بين المـــاء والقرآن . نزول كل من السماء ، بإرادة مالك الملك .

وفيما يتصـــل بالقسم السادس ، الذى يتحدث عن الفريقين الطبيعيين من الناس ، المؤمنين وغير المؤمنين ، الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا له جل وعلا ، ذاكراً أهم صفات كل من الفريقين ، هو يتكون من ثمانى آيات ، قال تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد . أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون

بعهد الله ولاينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

لقد ابتدأ الحديث بشأن الذين استجابوا لربهم بذكر ثوابهم . « للذين استجابوا لربهم » أما الذين لم يستجيبوا له جل وعلا ، فقد ابتدأ الحديث عنهم بذكرهم ابتداء « والذين لم يستجيبوا له » ثم جاء الحديث عن عقابهم « أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » .

وإن الحديث عن الذين استجابوا لربهم موجز ، بينما عن الذين لم يستجيبوا مستفيض ، مما يصح أن يعتبر دليلا على كون هذه السورة الكريمة مكية فى مجموعها .

إن الذين استجابوا لربهم هم الذين علموا أن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، وهؤلاء هم أولو الألباب . أما الذين لم يستجيبوا ولم يعلموا أن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، فهؤلاء بمنزلة العمى ، إنهم عمى القلوب والبصائر . ويفيض القسم بعد ذلك فى وصف أولى الألباب ووصف سواهم . ولا يخفى أن فى القسم إشادة بالعقل وثناء على الذين ينتفعون بهذه النعمة العظيمة، ويستعملونها الاستعمال الصحيح .

ويلاحظ أن الغالب بشأن صفات أولى الألباب استعمال صيغة الزمن المضارع ، بينما جاء فى شأن الصبر والصلاة والإنفاق سراً وجهراً ، استعمال صيغة الزمن الماضى كما يلاحظ أن الملائكة الذين يدخلون من كل باب من أبواب الجنة ، مهنئة أولى الألباب مرحبة بهم ، تشيد بصفة الصبر التى تحلى بها أولو الألباب فى الدنيا ، لأنها عماد كل الأعمال الصالحة التى قاموا بها .

وفيما يتصل بالقسم السابع الذى يتكون من أربع آيات ، هو يتحدث عن بسط الله تعالى الرزق وتضييقه . وعن المؤمنين والكافرين . وعن الحياة الدنيا التى يفرح بها الكافرون ، والآخرة التى لها ينكرون ، وعن إضلال الله تعالى من يشاء وهدايته من يشاء . إن من سمات الكافرين الفرح والخفة . وإن من سمات المؤمنين الهدوء والطمأنينة . وهكذا يتبين أن الآيات تتضمن السمة التى تمتاز بها السورة الكريمة فى جمعها بين الصفات المتقابلة قال تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع . ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

وفيما يتصل بالقسم الثامن ، الذى يتكون من ثلاث آيات ، فإنه يشير إلى عدد من سنن الله تعالى التى لا تتغير ولا تتبدل . منها إرسال الرسل للأمم السابقة حتى كانت الرسالة الأخيرة . ومنها أن اختيار نوع المعجزة ، إنما يتم بإرادة الله تعالى ، التى تعلم أنها كفيلة بهداية سليمى الطوية ، صحيحى العقول ، إلى سبيل الرشاد ، وليس وفق رغبة العباد . ومنها أن لكل معجزة وظيفتها ، فلا يصح أن يطلب منها فوق ما أريد منها أن تعمل . ومنها أن كلمة الله تعالى قد سبقت ، بأن جنده هم الغالبون ، وعباده هم المنصورون . فلن ينفع الكافرين كفرهم ولا استهزاؤهم . قال تعالى : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب . ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » .

وفيما يتصل بالقسم التاسع الذى يتكون من ثلاث آيات ، فإنه يثبت للذات العلية المستحقة لأن تعبد وحدها لا شريك لها ، القيام على كل نفس بما كسبت ، حيث لا يغيب عنه عز وجل ، الخالق البارئ المصور ، شيء مما يقوم به أى مخلوق سراً أو جهراً وينفى عن الآلهة المزعومة كل شيء . كما يشير القسم إلى عقاب الكافرين المجرمين ، وثواب المؤمنين المتقين ، من النار التى هى عقبى الكافرين ، ومن الجنة ، التى هى عقبى المتقين . ويلاحظ حظ الآيات الموفور من الصفات المتقابلة . قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، وجعلوا لله شركاء قل سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول . بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد . لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق . مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » .

وفيما يتصل بالقسم العاشر والأخير من السورة فإنه يتكون من ثمانى آيات قال تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك . ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية . وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت . وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً . يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . ويقول الذين كفروا لست مرسلا . قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

إن هذا القسم ، كما هو واضح ، يشير إلى الموقفين المختلفين لأهل الكتاب ، المنصفين والظالمين ، من دين الإسلام ومن القرآن الكريم . إن المنصفين

يفرحون بما أنزل الله تعالى إلى الرسول الكريم ، لأنهم على علم بأن هذا هو الحق من ربهم . وإن غير المنصفين ، ينكرون بعض القرآن ، وبخاصة ما هو نعت للإسلام وللرسول الكريم وما حرفوه وبدلوه من الشرائع .
إن حديث هذا القسم ، عن الدعوة فى الدنيا إلى هذا الدين ، والعودة يوم القيامة إلى الله تعالى ، إنما يطبع بالطابع الغالب على آيات السورة فى الجمع بين الصفات المتقابلة . وفيما يتصل بالآية الكريمة التى تشير إلى إنزال القرآن الكريم حكماً عربياً ، وإلى النهى عن اتباع أهواء ذوى الأهواء ، حاولنا فى سبيل تبيين معنى الحكم ، أن نستفيد من ظاهرة الصفات المتقابلة . وكان المقابل للحكم الذى يرتبط بالعقل والفكر لفظة الأهواء . وقد وصف الحكم بأنه عربى « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ومن هنا رجحنا أن يكون المراد بالحكم الإحكام ، بكسر الهمز ، وهو الصفة التى تشمل القرآن الكريم كله. وهى صفة يدخل تحتها بطبيعة الحال آيات الأحكام ، بفتح الهمز .

وفى هذا القسم تسلية للمصطفى صلى الله عليه وسلم وتثبيت لفؤاده عليه الصلاة والسلام ، فهذه آية تشير إلى أن كل الذى عليه صلى الله عليه وسلم إنما هو البلاغ ، والبلاغ فقط . وهذه آية تشير إلى أن دار الإسلام تتسع على حساب دار الكفر . وبذلك ارتد إلى الكافرين عاقبة مكرهم ، لأن الهزيمة التى أرادوها نصيباً للإسلام ، أصبحت من نصيبهم . وتختم السورة الكريمة بالنص الواضح الصريح على أن الشهيد ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين ، إنما هو الله تعالى ذو الجلال المتفرد بالكمال . ولا شك أن هذا المعنى يعتبر قمة التسلية وتثبيت الفؤاد . وصلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

فهرست الموضوعات

الموضـــوع — رقم الصفحة

المقدمـة ٥
توطئة ٧
الدراسة المتأملة لسورة الرعد ١٥
القسم الأول القرآن الكريم منزل من الله تعالى الآية رقم (١) ١٧
القسم الثاني رفع الله تعالى السماوات وفيها الشمس والقمر ومد الأرض وما فيها الآيات (٢-٤) ٢٣
القسم الثالث إصرار الكافرين على إنكار البعث وعقابهم في الأول الآيات (٥-٧) ٤٧
القسم الرابع مناقشة علم الله تعالى وقدرته الآيات ٨-١٦ ... ٦٧
القسم الخامس ١٢١
القسم السادس ١٣٣
القسم السابع ١٦٥
القسم الثامن ١٧٧
القسم التاسع ١٩٣
القسم العاشر ٢٠٥
الخـــاتمة ٢٢٣

فهرست بأهم المصادر

القرآن الكريم .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا ، اسماعيل بن كثير . التفسير . بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .

ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . لسان العرب . بيروت ١٩٥٥ م - ١٣٧٤ هـ.

ابن هشام . السيرة النبوية . حلبى . الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ . ١٩٥٥ م .

أبو حيان ، محمد بن يوسف بن على بن يوسف . البحر المحيط . بيروت بدون تاريخ .

البخـــارى ، صحيح البخارى . كتاب الشعب بمصر .

الزمخشرى ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر . الكشاف . مصطفى البابى الحلبى . ١٣٦٧ هـ . ١٩٤٨ م .

طبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى . تفسير الطبرى جامع البيان فى أحكام القرآن . الطبعة الأولى . بولاق . ١٣٢٩ هـ .

الفيروزابادى . القاموس المحيط .

القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى . تفسير القرطبى . الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشعب بمصر .

قطب ، سيد . فى ظلال القرآن . الطبعة المشروعة الثانية . ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م . دار الشروق .

رقم الإيداع ١٩٧٩/٢٨٠١

الترقيم الدولى ٧-٩٨-٧٣٠١-٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢١ شارع نشاطى - شبرا - القاهرة
تليفون : ٥٥٢٢١

دار الاعتصام
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى تليفون ٣١٧٤٨